المطران،

وصوت الراعي الصالح يسوع المسيح

دكتور

جورج حبيب باوي

٢٠١٥

www.coptology.org

المطران،
وصوت الراعي الصالح يسوع المسيح

طلب مني أكثر من صديق أن أترك المطران تماماً، وكان ردي هو أنه جعل نفسه معلماً، بل اللاهوتي الأول، وهو ما يشيعه ويروج له شلة من الملتفين حوله والمنتفعين بقربه، وقد يصدقه البعض من شعبنا القبطي الذين يجلون الكهنوت فينخدعون بسهولةٍ فيمن يرتدون زيه؛ لأن انتشار التقوى الشعبية لدى البسطاء والسذج قد تجعلهم يجدون في أفكاره وما ينشره بعض الصدق، وإن كنت أتمنى أن يواصل الكتابة ليظهر الوجه الحقيقي الذي يختفي خلف نعمة الكهنوت.

ما هو المعقول في الأرثوذكسية؟

في ص ١٠ فيما أسماه "دراسة بحثية عن كتاب رسائل أبونا فليمون المقاري"، تعليقاً على ما تم من حوار بيني وبين البابا كيرلس السادس بخصوص قول أبونا فليمون لربيتة الدير "أنا اتناولت قبل خلق العالم"، يقول الأنبا بيشوي: "هل يعقل أن يوافق البابا كيرلس على أن شخصاً تناول قبل خلق العالم، بل يؤيده ويشرحه؟"

وتساؤل الأنبا بيشوي عما يُعقل أو ما لا يُعقل، يطرح التساؤل عن المعقول في الأرثوذكسية، والمعايير التي تجعل شيئاً ما معقولاً أو غير معقول.

والتساؤل عن المعقول حقاً في الأرثوذكسية، سؤالٌ حقيقيٌّ لا يُترك للخيال أو العواطف أو حملات الشك الصادرة عن كراهية.

حسب التسليم الكنسي لدى اثنين من عمالقة الكنيسة الجامعة: النيسي وأغسطينوس هناك قاعدة مؤداها: "أؤمن لكي أفهم"، فالإيمان إذن –حسب التسليم الكنسي– هو دعوة للفهم لا تحدد الذكاء، ولا تمنع الحوار والبحث، بل العكس هو الصحيح.

إذن، ما هو معقول في الأرثوذكسية، هو كذلك لأنه:

أولاً: من الإيمان.

وثانياً: لأن الإيمان له أساس ثابت هو "التدبير" أو "الإيكونوميا". وهنا يجب أن ننتبه إلى عبارة القداس الغريغوري: "أكملت التدبير بالجسد"، وهي عبارة تعني وصول التجسد إلى غايته، أي إلى "إعادة الشركة بين الإنسانية والثالوث".

وثالثاً: إن ما هو معقول، إنما يُدرك في إطار تدبير محبة الثالوث لنا، وهي محبة خاصة للإنسان حدث فيها التنازل الأبدي بتجسد الابن وصلبه ودفنه وقيامته، ثم انسكاب الروح القدس في يوم العنصرة ليسكن فينا إلى الأبد (يوحنا ١٤: ١٥).

كيف نفهم التدبير؟

ولم يكتفِ المطران بالتساؤل عن المعقول، بل اعتراض أيضاً على سماع الأب فليمون المقاري صوت الرب يسوع، بل رؤيته، وهو اعتراض إسلامي بحت؛ لأن في الإسلام، القرآن هو آخر ما أُنزل من الله، ولا يوجد تنزيل بعد ذلك، بل تطبيق أحكام الشريعة. وقد تسللت هذه المقولة إلى بعض كتابات مسيحية جعلت من أسفار العهد الجديد آخر استعلان إلهي، وتأصَّلت هذه الفكرة عند الشِّيَع الإنجيلية التي تحارب التسليم الكنسي بواسطة أسفار الكتاب المقدس، بينما جاءت المجامع المسكونية، لا سيما نيقية ٣٢٥م والقسطنطينية ٣٨١م بردودٍ على هرطقات لم تكن معروفةً في عصر الآباء الرسل، وكان من الضروري الرد عليها من التدبير، ولذلك جاءت كلمة: "الواحد مع الآب في الجوهر" (راجع ق. أثناسيوس مقالة المجامع فقرة ٣٩).

وقد تكلم الآباء في كل المجامع بما ورد في الأسفار، لكن كانت معاني كلمة الأسفار قد تعرضت لتشويه في مدارس الهرطقات، وهي مدارس لها جذور فلسفية وثقافية يونانية جعلت ترتليان يسأل عن علاقة أثينا بأورشليم، أي الفلسفة بالوحي (مقالة وتحليل *Praescriprione* الهرطقات فصل ١٨). ودور العقل بلا وحي، هو دور الفلسفات كلها، ولكن عندما يترك مسيحي دائرة التدبير ويقفز خارجاً ليسأل: هل معقول أن الرب تكلم مع فليمون؟ ثم عندما لا يجد فليمون؛ لأنه رحل إلى مجد الحياة الأبدية، يسلِّط الشك على اختبارٍ متاحٍ لكل المؤمنين، يكون ذلك هو غير

المعقول فعلاً. وقد سمع الكثير من البشر صوت الرب بعد صعوده، ودون في سفر الرؤيا في انذار وتعليم الكنائس السبع وسمعه شاول. ومَن يدَّعي بأن الرب صَمَتَ بعد دخوله إلى مجد الآب، هو من استعار تعليم الإسلام بنهاية التنزيل بآخر سور القرآن لكي يجعل المسيحية تسير في خطٍّ موازٍ للإسلام، أو حسب ما صار معروفاً الآن بـ "أسلمة اللاهوت المسيحي"، مع أنه في الواقع الحي لا يمكن تنصير الإسلام، ولا أسلمة المسيحية، والخلطُ هو عوارٌ يكشف عن تربية ونشأة ومنهج وثقافة من يخلط بين الإسلام والمسيحية.

يقول رب المجد نفسه: "إن لي أموراً كثيرة أيضاً أريد أن اقولها لكم ولكن أنتم لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. أما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به"، ثم أضاف الرب نفسه: "ويخبركم بأمور آتية"، وحدَّد هدف هذه الأمور بأنها تمجيد الروح القدس للابن "ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (يوحنا ١٦: ١٣-١٤).

يخبركم بأمورٍ آتية:

يبدو أن انعدام التعليم عن شركتنا في المسيح، وشركة المسيح لحياتنا، قد قاد المطران إلى الشك في أن كل من له شركة محبة، وليس الراهب فليمون وحده يمكنه أن يسمع صوت الرب يسوع، وهو ما يؤكده الرب يسوع نفسه وهو يحاكَم أمام بيلاطس: "كل مَن هو من الحق يسمع صوتي" (يوحنا ١٨: ٣٧). وشهادة يسوع ليست في الأسفار وحدها، بل في صوت الراعي الصالح الذي يقود الخراف، فهي تعرف صوته (يوحنا ١٠: ٦)؛ لأنه يدعو خرافه الخاصة بأسماء (يو ١٠: ٣)، والأسماء هي علامة العلاقة الشخصية.

كان لدينا أنبياء، وكان يوحنا الأسيوطي يسمَّى "نبي مصر"، وسمعنا نبوات كثيرة، لكن ما أغرب عمى الكراهية. عندما جاءت أحداث دامية: حرب ٧٣ – التحفظ على الأنبا شنودة في دير الأنبا بيشوي – شهداء الفكرية – عزبة دميان – كنيسة القديسين. كيف فهم المطران هذه الأحداث الدامية، وهي لم تكن بالمرة كما

هو ثابت من كتاب رسائل أبونا فليمون – لم تكن عن خليفة البابا كيرلس السادس، ولا عن أي خليفة، مع الأخذ في الاعتبار أن الاسم "خليفة" غريب على مفردات الكنيسة، وإن كان مصدره معروفاً .. لكن هكذا تطفو الكراهية وتصنُّع الأخطاء.

نحن نسمع صوت الرب على ثلاثة مستويات متنوعة:

وكلمة مستوى لا تعني أن هناك مستوى أعظم، بل مستويات متنوعة.

١- "كل مَن هو من الحق يسمع صوتي". والحق هو المسيح، وروح الحق هو الروح القدس، وشهادة الروح لنا ليست فقط في الأسفار "الروح نفسه (الأقنوم) يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله" (رو ٨: ١٦)، ولذلك في هذه الشهادة "إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضاً معه" (رو ٨: ١٧). أحياناً تأتي الشهادة بصوت في داخل القلب، وأحياناً بفكرة تبرق مثل برق السماء، وأحياناً بالقراءة، ومرات بسماع صلوات أو تراتيل لكي ينقل إلينا روح الحق، حق المسيح من كلمات نسمعها لا علاقة لها بما يدور في داخلنا.

٢- النبوة، وهي الأمور الآتية، وهي ما نطلبه في صلاة الساعة الثالثة حسب الأصل القبطي (أحيانا تخلط الطبعات العربية بين البنوة والنبوة) ولكن نحن نسأل ⲟⲩ ⲡⲛⲉⲩⲙⲁ ⲙ̀ⲡⲣⲟⲫⲏⲧⲓⲕⲟⲛ وهي موهبة التعليم وكشف نوايا القلوب ومعرفة المستقبل أيضاً. وكنا قد سمعنا عن نبوات عن حرب ١٩٧٣ قبل أن تحدث بعام على الأقل. وكانت هناك نبوة عن الأنبا شنودة الثالث سمعها بنفسه تحذيراً له، ولكنه سد أذنيه وسار في طريق الغواية.

٣- ونحن نسمع صوت الرب يدعونا: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، و"خذوا اشربوا هذا هو دمي"، وهو صوت من يقدِّم نفسه لنا. وما أكثر الاستعلانات الإلهية التي تأتي إلينا في استعلان الثالوث في القداسات. عندما سألت في بحث ميداني ١٠٠ شخص من مختلف الأعمال والانتماء: هل القداس الإلهي هو استعلان الثالوث؟ وجاء الجواب ٩٨% بالنفي. قال واحدٌ منهم: إن السؤال نفسه غريب. وقال آخر: لم يسبق أن فكَّر في هذا السؤال، ولكن الإجابات كلها كانت كلها في اتجاه واحد، وهو

أن هذا التعليم غير معروف.

٤- وصلواتنا الشخصية ليست "حصة محفوظات"، كما كان المعلم الكنسي الحكيم أبونا ميخائيل إبراهيم يقول لنا: "إن الصلوات الخاصة هي لقاء بالرأس وعودة الوعي الإنساني المشتت إلى الرأس الذي منه تكوَّن العضو" (كولوسي ٢: ١١).

شهادة التسليم الكنسي لصوت الراعي:

يبدو أن المطران لا يعرف ما أشرنا إليه في النقاط السابقة، ولذلك هو يستهجن ويشك في أقوال الأب فليمون المقاري. ولكن عندما يقول هذا الراهب الاسقيطي:

"المسيح هو الوسيلة والمسيح هو الغاية"،

فهل هذا صوتٌ غريب، أو غير مالوف؟ أليست له مرجعية من الأسفار عن "الوسيط الواحد"؟ فهو الوسيط، أي الوسيلة إلى الغاية؛ لأنه القيامة والحياة.

إن ما يُسمع في القلب أو في استعلانات ومناظر إلهية، يُحفَظ إلى أن يأتي زمان تتحقق فيه الكلمة أو الرؤيا. وما أكثر الذين عاينوا الرب بالعين وشاهدوه، وشهدوا له وكانت حياتهم هي ختم صحة الرؤيا.

إن ما يُقال من الرب يُراجع، لا من أجل الشك فيه، ولكن لأن تمييز الحق من همساتٍ قد تأتي من الذاكرة أو من الخيال أو من اختبار سابق لا علاقة له بالله، من أجل هذا نحن ننتظر، ليس لأننا نشك، بل لأن سماع الراعي الصالح يحمل معه علامة ودليل الصدق وهو:

- الفرح
- التعزية
- الثبات
- القداسة
- المثابرة.

وهي علامات الصدق والحق، ولعل من يدرس بعناية، أطول حديث عن

الأرواح النجسة سُجِّل لنا، وهو حديث العظيم أنطونيوس (الفقرة ١٦-٤٣) حسب الطبعة الدولية)، ومعرفة درجة خبث وشر الأرواح النجسة (فقرة ٢٢)، رؤية هذه الأرواح (فقرة ٢٤)، وعدم الخوف، بل عندما يُرتل المزمور، تخدع الأرواح النجسة مَن يرتل، ويرددون كما لو كان صدى الصوت ذات الكلمات (فقرة ٢٥)، بل هناك نبوات تبدو حقيقية مثل معرفة مقدار زيادة ماء النيل في موسم الفيضان (فقرة ٣٢). لكن من الفقرة ٣٦-٣٧-٣٨ يعلمنا أنطونيوس العظيم حقاً تمييز الفرح والتعزية والثبات والمثابرة، وهو موضوع يشمل كل ما في حياة أنطونيوس. بل لم يكن أنطونيوس يخاف من الشياطين كما نخاف نحن في هذه الأيام بسبب انهيار التعليم (راجع حياة أنبا انطونيوس فقرة ٤١ عندما قرع الشيطان باب الدير وقال لأنطونيوس أنا الشيطان وعبَّر الشيطان عما أصابه من جراء ما فعله المخلص بواسطة الرهبان .... وقد عاد أنطونيوس إلى المقبرة التي ضربه فيها الشيطان ليقول للشياطين "أنا هنا أنا أنطونيوس" (فقرة ٩)، بل سمع صوت الرب يؤكد له أن بجانبه ومعه (فقرة ١٠)[١].

سيقول المأجورون إن ما ذُكر في سيرة العظيم أنطونيوس هو خاص بالأنبا أنطونيوس وحده .. هذه هي كذبة الشيطان نفسه؛ لأنه أراد -بالكذب- أن يجعل الرب يسوع صامتاً لا يتكلم، بعيداً في السماء يراقب فقط، لا يشاركنا حياتنا.

تلك مأساةُ جيلٍ سقط تحت حصار الانفصال عن الرب يسوع:

كيف تم فصل الرأس عن الجسد، أي المسيح عن الكنيسة جسده:

لم يكتب بشكل مباشر أن علاقتنا بالرب يسوع قد انتهت بالصعود، وأنه عاد إلى المجد الذي كان له قبل تجسده، ولكن كان التدمير كان يتم في بطءٍ غير ملحوظ، وبشكلٍ غير مباشر مثل عمل البكتريا أو الفيروس في جسد الإنسان، يدمر الخلايا بما فيها جهاز المناعة، والمريض لا يعرف. مثلما ذكره رسول الرب أن الشيطان يغيِّر

---

(١) قارن -عزيزي القارئ- هذا بالتعليم الفاسد عن تواضع أنطونيوس للشياطين، الذي عندما اعترض الراهب دانيال البراموسي عليه، طرده من الكنيسة المطران العلامة؛ لأن ما كُتِبَ عن تواضع أنطونيوس للشياطين، كان فقرة في قصيدة شعرية لأستاذ الأنبا بيشوي، الأنبا شنودة، وهي قصيدة ترددها -للأسف- كنيسة أُم الشهداء في تسبحة كيهك.

شكله إلى "شبه ملاك نور" (٢ كور ١١: ١٤)، فكيف تم هذا التدمير؟

١- الصمت إزاء حقيقة أبدية، وهي أن الكنيسة جسد الرب فعلاً وليس رمزاً أو تشبيهاً.

٢- حصار السر المجيد بالممارسات الجسدانية مثل غسل الأسنان .. والصمت المطلق إزاء حقيقة اتحادنا ووجودنا في المسيح يسوع.

٣- نقل موت الرب وقيامته إلى دفتر التاريخ، واعتبار أن يوم الجمعة الكبيرة هي جمعة "دفع ثمن الخطايا" وإرضاء العدل الإلهي .. الخ من عبارات تضع رب الحياة في سجن التاريخ.

٤- فصل عمل الروح القدس عن عمل الرب (المخلص) واعتبارهما عملين مختلفين تماماً، بينما حسب التسليم الكنسي أو الليتورجي، الروح القدس يُستدعى في كل صلوات الكنيسة لكي يعطي لنا أسرار أو سر المسيح.

٥- نقل موضوع الروح القدس من عمله كأقنوم يسكن فينا إلى مجرد حلول يعطي المواهب.

وماذا تبقى بعد ذلك، إذا تذكَّر القارئ أن الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس تحول إلى الوجود والعقل والحياة، و لم يعد الثالوث أقانيم، بل صفات هي في الواقع صفات الكائن الإنساني الحي الذي لا يمكن أن يكون إنساناً إلا إذا كان له وجود وعقل وحياة.

تلك هي صحراء الاغتراب التي تجعل المطران يجرد قلمه واتباعه ليكتب ضد اختبار رجل عاش في المسيح، ربما لو كان في دير آخر غير دير الأنبا مقار، لنال الكتاب اهتماماً آخر.

ويبقى علينا أن نرسم إطاراً فكرياً للمطران.

الإطار العقلي لفكر وتوجهات المطران:

لا أدري كيف يمكن تصنيف ما كتبه المطران عن علاقة الراهب الاسقيطي فليمون بالرب والمخلص، هل هو نقص، أو انعدام الخبرة والاختبار، وجهل بالحياة

الأرثوذكسية؟ والجواب هو الإيجاب، هو كل ذلك.

هل من باب الكراهية والبغضة لمن جمع رسائل الراهب، لمجرد أنه جورج بباوي الذي يزعجه؛ لأنه حُرِمَ من شركة الكنيسة بلا سبب، وهو ما جعل المثل الشائع "يكاد المريب أن يقول خذوني"، ينطبق عليه هو، إذ يبرر كل أو بعض ما في جعبته من أكاذيب وتزوير؟ .. والجواب هو أيضاً نعم.

لكن، ألا يدري أنه يحارب الرب نفسه في أشخاص الذين يطاردهم دون هوادة؟ هو لا يدري ذلك؛ لأن الكنيسة عنده قد اختفت من الواقع الإلهي نفسه، فهي ليست جسد المسيح، وربما هو ضحية نظرية الأجساد الثلاثة التي نشرها أستاذه، ويدافع عنها هو.

ألا يعرف أن ملف العقيدة ملفٌ مفتوح لا يمكن لأي قوة في الأرض أن تغلقه؟ فهل تعلَّم أن أباطرةً حاربوا الإيمان النيقاوي، وعجزوا عن تدميره، ليس فقط بسبب شهادة ومثابرة معلمي الكنيسة، بل لأن العقيدة، وبالذات ألوهية الرب يسوع، هي "سدى ولُحمة" الحياة الكنسية الأرثوذكسية؟ تُرى هل سيتخلى عن التنزيل لكي يؤمن بالتسليم، وبسماع صوت الرب الذي قال لنا إن من يحبه يسوع سوف يُظهر له يسوع ذاته (يوحنا ١٤: ٢٢)؟

التدبير الإلهي وحياة الشركة:

يقود رأس الجسد، ربنا يسوع المسيح، الكنيسة في وسط أعاصير كثيرة. فقد تكلم الرب في المجامع المسكونية نيقية ٣٢٥م والقسطنطينية ٣٨١م وأفسس ٤٣١م، وعلى ألسنة المعلمين. الأرثوذكسية لا تحيا بالتنزيل الذي يعقبه الصمت؛ لأن ما بعد التنزيل هو الشريعة، ولكنها تحيا باستعلان الثالوث، وتحقيق هذا الاستعلان في حياة الشركة، شركتنا نحن في "الآب وفي ابنه يسوع المسيح" (١ يوحنا ١: ١-٣).

ويحدِّثنا الرب يسوع بالمثال، فالتجسد وإخلاء الذات هو حديثٌ شخصي يترع من كل لغة ومن كل كلماتنا، القدرة على التعبير عن أعماق الألوهة التي لا يمكن لأي لفظ أن يعبِّر عنها. أمَّا الصَّلبُ، فهو لحن المحبة الأبدية الغافرة، وهو موسيقى

الألوهة الفائقة التي نسمع فيها المحبة بلا سبب، وقبول غير المستحقين، والبذل الذي وصل إلى أبواب الموت ودخل إلى الموت لكي يسبيه. وعندما قال الرب يسوع إن الروح القدس سوف يعمل فينا ويحكم على الفهم الزائف للصدق (بر الله)، وعلى عجز الدينونة عن أن تُحيي الأموات، وعلى قوة الإيمان التي تُبطل مشورة الفكر المحدود بالاختبار الآني المؤقت الذي لا يرى ولا يقبل قوة وجمال وديمومة الحياة الآتية (راجع يوحنا ١٦: ٨ – ١٦).

ليست شركتنا من طرفٍ واحد، هو نحن، والطرف الآخر صامت، بل شركتنا في الذي أعطى لنا "موهبة النطق" لكي تسكن فينا "كلمة المسيح بغنى" (كولوسي ٣: ١٦).

ونقل إلينا الرب محبته في أناشيد وألحان الكنيسة، وهو ما تؤكده عبارة رسول المسيح لأنه بعد أن كتب: "لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى"، أضاف: "وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب" (كولوسي ٣: ١٦)، وخاتمة الفقرة عند بولس نفسه: "وكل ما عملتم بقول أو فعل فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين الله الآب به" (٣: ١٧)، فوضع بذلك رسول الرب، الشرح الرسولي لكلمات الرب "أنا هو الكرمة وأنتم الأغصان" (يوحنا ١٥: ١).

قارنين الروحيات بالروحيات (١كو ٢: ١٣):

ما أعظم الفرق بين مقارنة مسحة يسوع في الأردن وحلول الروح القدس على الخبز والخمر في القداسات، وبين استهتار أسقف الإسكندرية بحقائق الإيمان عندما يضرب حقيقة بأخرى، مثل قوله: لو أن الكنيسة جسد المسيح، فهل تأكل نفسها في الإفخارستيا؟

إن ما غاب عن جيل الـ ٤٠ عاماً الماضية هو التسليم الكنسي، وهو حسب عبارة رسول المسيح: "نحن لم نأخذ روح العالم بل الروح القدس من الله" (١كو ٢: ١٢). ولكن ذلك الروح غائب؛ لأنه تحوَّل عند أساقفة الأنبا شنودة إلى قوة وطاقة

فقط، وليس الله نفسه، ولذلك يتم قول الرسول: "الروح الذي هو مـــن الله لنعـــرف الأشياء الموهوبة لنا من الله. التي نتكلم بها أيضاً لا بأقوال تعلمها حكمة إنسانية (تلجأ إلى حيلة هل هذا معقول؟)، بل بما يعلمه الروح القدس قارنين الروحيات بالروحيات" (١كو ٢: ١٢-١٣). ولعل بقية عبارات الرسول هي رد الرسول نفسه على الأنبـــا بيشوي: "الإنسان الطبيعي – الذي يحيا حسب آدم الأول – لا يقبل ما لـــروح الله؛ لأن عنده جهالة" (١كو ٢: ١٤)، ولذلك تركنا الحكم للرسل والرب نفسه مُعلـــن نفسه لمن يحبه، أما هذر وسخافات المطران، فحُكمُ الربِّ عليها هم الأهم.

د. جورج حبيب بباوي